# البلاغة وطبقاتها عند الأعراب المجهولين

الدكتور: عبد الكريم محمد حسين

جامعة دمشق ـ سوريا

المقال يتناول مفهوم البلاغة لدى العرب، وهؤلاء الأعراب موغلون في بداوتهم وعروبتهم. وفي عرض رؤاهم للبلاغة ما يعطي صورة عن أولية التفكير البلاغي عند العرب، ويكشف عن مواقف الأعراب من السؤال عن مفهوم البلاغة لتكون أجوبتهم ضرباً من التعبير الأدبي الممهد للمفهوم العلمي للبلاغة.

L'article traite la notion de la rhétorique chez les Arabes. Ces bédouins très attachés à leur nomadisme et leur arabisme se sont appliqués intensément à la présentation de leur vision pour l'éloquence, chose qui a généré une image préliminaire de la pensée rhétorique chez les Arabes, et révélant ainsi leurs positions de la question sur la notion de la rhétorique comme une forme d'expression littéraire .

في فضاء البحث عن علم البلاغة، يتراءى لك من بعيد مفهوم البلاغة عند العرب في أطواره المختلفة، وفي طبقاتٍ من الناس كانت متباينةً في وعي الأمر وإدراك أبعاده، وأولى تلك الطبقات طبقة الأعراب التي جاء كلامها بلاغة، وقالت في مفهوم البلاغة ، والأعراب فريقان: الأول مجهول الاسم والنسب والزمان والمكان..، والآخر معلوم الاسم أو النسب والزمان والمكان..وتكتفي هذه المقالة بالأعراب مجهولي النسب والاسم، فهم نكرات مجهولة، ولو تأخرت أزمانهم أو تقدمت فإن زحزحة المفاهيم عن مواطنها في عقولهم قليلة، ولو كانت خيامهم متنقلة في البحث عن الكلأ والماء لا تكاد تستقر حتى يرسلوا الرواد يرتادون المراعي الجديدة من جديد، فثبات المفاهيم تابع لثبات القيم في قلوبهم وهي التي أسماها القرآن عرفاً{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف : 199 ]ونسميها عادات العرب وسواديها..وهي لا تكاد تختلف عندهم باختلاف الزمان أو المكان إلا قليلاً.

ولي في اختيار هذه الطبقة مقاصد: منها أن هذه الطبقة من العرب هم سكان بيوت الشَّعَر، ولم يبدأوا العيش في بيوت الحجر؛ مما يعني صفاء المفهوم البلاغي لديهم من شوائب أوهام التأثر بالثقافتين الهندية واليونانية. ومنها مراقبة آثار هذه المفهومات في تعريف الأعراب المعروفة أسماؤهم

من بعد ذلك، والعلماء الذين أخذوا كلامهم من غير إضافة أو تصريح بعودة النص إليهم، أو الذين أضافوا فهمهم إلى كلام الأعراب ثم أسندوا الكلام إليهم أو لم يسندوا.

ولا يخفى ما في هذين الغرضين من فوائد علمية تنفع في تأصيل مفهوم البلاغة، وتأريخ جذور المصطلحات العلمية البلاغية في توكيد عروبتها وصفاء ينابيعها رغم ادعاءات الشعوبية القديمة والمعاصرة الملتفعة بالعلم والموضوعية والبحث العلمي، وهي تدلي بشبهات الهالكين من المستشرقين بانتساب هذا العلم إلى الهنود أو غيرهم.

والمقال يتناول مفهوم البلاغة لدى العرب، وهؤلاء الأعراب موغلون في بداوتهم وعروبتهم، وفي عرض رؤاهم للبلاغة ما يعطي صورة عن أولية التفكير البلاغي عند العرب، ويكشف عن مواقف الأعراب من السؤال عن مفهوم البلاغة لتكون أجوبتهم ضرباً من التعبير الأدبي الممهد للمفهوم العلمي للبلاغة.

وفي سبيل ذلك لابد من إثبات ما قاله الأعرابي المجهول في الإجابة عن التساؤل: ما البلاغة؟ لبيان ماهية البلاغة في إحساسهم وأذهانهم، ومناقشة ذلك المفهوم بالفهم والتحليل والتساؤل لتحريك العقل تمهيداً لمقال يتناول مفهوم الأعرابي المعروف اسمه للبلاغة، ولعل الأمثلة المصاحبة للتعريف إذا كانت لأعراب آخرين تفصح عن المراد، وتفتح دروباً للقول في ذلك المفهوم لديهم.

**البلاغة والعي**: لعل أول ما تقع عليه الفكرة تعريف الشيء بضده، وبضدها تتباين الأشياء، وهذا ما يوضحه الخبر الآتي: ((وتكلّم رَبيعة الرَّأي يوماً فأكثر " وأُعجب بالذي كان منه " وإلى جَنْبه أعرابيٌّ، فالتفتَ إليه، فقال: ما تَعُدّون البلاغةَ يا أعرابيّ؟ قال: قِلّة الكلام وإيجاز الصواب، قال: فما تَعُدّون العِيّ؟ قال: ما كنت فيه منذُ اليوم. فكأنما أَلْقمه حَجراً.))[1]

فربيعة الرأي يرى البلاغة بكثرة الكلام في موضوعه، وهو معجب بما يقول في المجلس، ويظن أنه قد تفوق على أهل البلاغة، وأن مستمعيه بإصغائهم إليه رضوا عن بلاغته ورغوته، فسأل أعرابياً في المجلس عما سمعه منه لكن ليس بطريق مباشرة بل جعل ذلك من خلال استعلام الأعرابي عن مفهوم البلاغة عند الأعراب(ما تعدون البلاغة يا أعرابي؟) فأجابه الأعرابي: البلاغة عندنا في

(قلة الكلام) والطريف أنه لم يؤكد كلامه بأي أداة توكيد(القسم، إن..) لإنزاله ربيعة الرأي منزلة خالي الذهن من مفهوم البلاغة بل حذف المسند إليه(البلاغة= المبتدأ في النحو) لبيان بعد ربيعة الرأي مما يعد في باب البديهة.

وأردف ذلك بقوله: (وإيجاز الصواب) بمعنى أن كثرة الكلام الأدبي تضر بالمعنى الصائب غرض البلاغة. فالبلاغة إيجاز الصواب في الكلام. وأراد ربيعة بهذا الرأي الاحتجاج لموقفه بسؤال آخر هو قوله: (ما تعدون العِيَّ فيكم؟) يريد أنه أكثر كلامه حتى لا يقال إنه عاجز عن القول، وبين فساد مذهبه قبل سؤاله في أثناء إجابته بقوله: (إيجاز الصواب) لكنه اضطر بعد أن لمح مراد ربيعة بإكثاره القول بناء على تقابل البلاغة والعي في ذهنه، وأن ما جاوز العي صار بلاغة، وكلما أوغل في كثرة الكلام تقدم في ارتقاء سلم البلاغة..فقال له صراحة: العي ما كنت فيه اليوم..فأنزله منزلة من لا يفهم التلميح، وجعله مفتقراً إلى التصريح. فالعجز عن الإيجاز وإصابة المعنى المراد بالكلام هو نقيض البلاغة، ولو كثر الكلام. فأبطل الأعرابي مفهوم ربيعة الرأي للبلاغة إذ جعلها تقابل العي بقلة الكلام، وجعل ربيعة الرأي البلاغة بكثرة الكلام، فجوابه كان بما تقدم فسقط مفهومه وسقطت حجته.

**البلاغة تقربٌ وتباعد وإيجاز:** إن كلام العرب والأعراب منهم يومئ إلى عقل بعيد الرؤية، عميق الفكرة يدل على ذلك الخبر الآتي((قال أعرابي: البلاغةُ التقرّب من البعيد، والتباعد من الكُلْفَة، والدلالة بقليل على كثير.))[2] فهذا الخبر يثير الدهشة في إيجازه واتساع فضائه معنى ودلالة على المطلوب عند العربي من سمات البلاغة التي تُعَيِّنُها أذواق الأعراب في مجتمعات بعيدة من الهند ويونان بُعْدَ المشرق والمغرب منهم، وكلامه يحتاج إلى بحث مطول يمكن التقاط أطرافه بتحليله:

فقوله: (التقرب من البعيد) فذكر الصفة وأضمر الموصوف في صدره؛ لأن البعيد من القول ليس شيئاً واحداً، وكان يمكنه التصريح به، فيكون كلامه كلام الناقلين عن العربية، كأن البلاغة التقرب من الشيء البعيد، وهو معنى حسي، فهي خطوات لإدراك الشيء مهما يكن، وكان يمكن أن يقول: البلاغة التقرب من المعنى البعيد وتقريبه للناس، ولم يقل: إصابة المعنى نفسه فتكون البلاغة

في مباشرة الشيء البعيد لا في مجاورته والإيحاء بحضوره على طريقة المقاربة في الوصف والإصابة في التشبيه عندما يعرض المعنى على هيئة صورة مقرونة بصورة أخرى، فهو يتكلم على طرق البلغاء في التقرب من المعاني البعيدة من تناول الناس أو فطنتهم، واحترام عقولهم بدعوتها إلى الاجتهاد في تقدير المعنى القريب من البناء ومن غرض الناطق بغير مباشرة.

فالتقرب من البعيد أسلوب لإخراج المعاني من التعقيد أو الإلغاز، أو التعمية، وإبرازها في أثواب جميلة تجعل المتلقين على مقربة منها، بشرط تحقيق المتعة بطريقة أدائها إليهم. فَحَذْفُ الموصوف فتح أبواباً غير متناهية إلى حد أو عدد لتقديره، وهو من بلاغة النص بسبب الحذف، وذاك اقتراب من الموصوف بصفة من صفاته، وهي البعد.

والتقرب تباعد من التكلف والمشقة في البحث عما يحقق الشرط، فكأن الأعرابي يقول: البلاغة طبع وسجية أودعها الله في بعض الناس، فالبلاغة في تقربك من البعيد وبعدك من التكلف بافتعال البلاغة أو الخصائص، فإن استوت لك خصائص البلاغة فضحك التكلف فأنتجت عملاً له صورة البلاغة وليس فيه روحها؛ ذلك أن التكلف كذب وتصنع يفقد الكلام البليغ قوة تأثيره، ويصبح صورة جميلة لكنها ميتة لخلوها من الروح.

والإيجاز في قلة المباني المقتضية قلة الألفاظ وكثرة المعاني الدالة على غنى تلك المباني إذا نظر إليها بعين الإنصاف، وبلغ منها محل الأرواح فحقق متعة القلب ببلوغ الأرواح ولذة العقل بروعة البناء وهندسته. فالبلاغة عند هذا الأعرابي تقرب من الأبنية البعيدة بكل ما تحمله تلك الأبنية، وتباعد من تكلف دافع البلاغة، ومادة البلاغة ومقاصدها..

ولعل أبا هلال العسكري كان يطوف حول كلام يشبه كلام الأعرابي المتقدم إذ يقول: ((والتقرّب من المعنى البعيد، وهو أن يعمد إلى المعنى اللّطيف فيكشفه، وينفي الشواغل عنه، فيفهمه السامعُ من غير فكر فيه، وتدبّر له. مثل قول الأول في امرأة[من السريع]:

**لم ندر ما الدّنيا وما طيبُها ... وحسنُها حتى رأيناهَا**

**إنكَ لو أبصرتَها ساعةً ... أجللتهَا أن تتمنَّاها))**[3]

فكلام أبي هلال صواب محض في تقدير الموصوف المحذوف المعنى، والشيخ أبو هلال يعلم أن الأعرابي لو أراد المعنى وحده لذكره على جهة التخصيص والتقييد لكنه أبى ذلك رغبة في الإبهام، ورغبة في ترك التخصيص؛ لأن المراد المعنى وسبل أدائه معاً(لفظاً وصورة ومشهداً وعاطفة وعقلاً) فلو قصر الأمرَ على المعنى لصغرت مساحة الإيجاز وقربت مسافة الإبداع البلاغي، ولم يكن ذلك من رغائبه في البلاغة. وقول أبي هلال: (وهو أن يعمد إلى المعنى اللّطيف فيكشفه، وينفي الشواغل عنه، فيفهمه السامعُ من غير فكر فيه، وتدبّر له.) والمعنى اللطيف هو المعنى الخفي أي بعيد من متناول الأدباء من طرف، وبعيد من متناول المتلقين من طرف آخر، فيزيح عنه ما يحجزه عن الأبصار، وينفي مِن حوله ما يشغل العقول عن المعنى المراد البعيد منهم، فيصبح المعنى شاخصاً لمتلقي الكلام البليغ.

وفي قول الشاعر بمحبوبته تشبيه لحال الكلام البعيد وصاحبه بحال الشاعر والدنيا، فهو لم يدرك كنه الدنيا في طيب عيشها وجمالها حتى رآها، ولا يعرفُ المعنى البعيد في هيئته قياساً بمتلقيه طعماً وحلاوة ومرارة إلا بتقريبه، ولا يعرف حسنه وجماله إلا برؤيته شاخصاً دون متلقيه. وجعل وسائل عرض المعنى تغنيه فنياً وجمالياً، ولو كان المعنى في نفسه لا يستحق ذلك فحاله كحال الدنيا إذا أبصرتها معاناةً حقرتها؛ لأن (أجللتها) من ألفاظ الأضداد[4] تحمل معنى التحقير ومعنى التعظيم، والبيت يقبل الوجهين معاً على تباعدهما، فإن جعلتها تحقيراً كان قوله(أجللتها) أي لا تتمناها نفياً، وإذا كنت وجدت متعتها وحسنها كما وصفت فأنت أولى أن تعظمها، ويكون إجلالها بأن تتمناها. وهو فرق واضح بين مواقف الناس منها في تقريب الدنيا أو الابتعاد منها كتقرب البليغ من المعاني وتباعدها من تكلفها تجربة وأبنية...فما أغنى كلامَ هذا الأعرابي! وما أحسنَهُ!

وعرض أعرابي آخر لمفهوم البلاغة المتقدم عند غيره بقوله: (( البلاغة التقربُ من معنى البغية، والتبعدُ من وحشي الكلام، وقربُ المأخذ، وإيجازٌ في صوابٍ ، وقصدٌ إلى الحجة ، وحسنُ الاستعارة))[5] فالبلاغة تقرب بالبيان من المعنى الذي يحقق بغية الناطق ويلبي حاجة السامع أو المخاطب، والبعد من وحشي الكلام؛ لأن اختيار الوحشي من غير أهله آية من آيات التكلف،

والتكلف محل ذم عند العرب، وقرب المأخذ جاء بيانه من أبي هلال العسكري إذ يقول: ((**وأما قرب المأخذ فهو أن تأخذ عفو الخاطر وتتناول صفو الهاجس ولا تكد فكرك ولا تتعب نفسك وهذه صفة المطبوع**))[6]

فقرب المأخذ عنده موصول بطريقة اختيار اللفظ للمعاني، ويشترط أن يأتي اللفظ عفو الخاطر بصفائه من الشواغل التي تتنازع على بوابة الكلام كل منها يود العبور إلى تكوينٍ بليغ أولاً، فإذا صفا الخاطر من تزاحم الوراد عليه كان الكلام البليغ سهلاً على قائله، وكان مفيداً وممتعاً لسامعه، وانقاد لقائله من غير مشقة في طلبه، ولا تعب في تحصيله كان ذلك من علامات الكلام المطبوع عند العرب. فقرب المأخذ يعني فيما يعني سهولة تكوين الكلام البليغ على قائله وإفادته معنى ومتعة لسامعه.

وثمة فهم آخر لقرب المأخذ جاد به ابن رشيق القيرواني مستفاد من أمثلة قرب المأخذ إذ يقول: ((**وقد حكى أن ابن أبي ربيعة جلس إلى ابن عباس رضي الله عنه، فابتدأه ينشده**[7][من المتقارب]:

**تشط غداً دار جيراننا**

**فقال ابن العباس:**

**وَلَلدَّارُ بَعدَ غَدٍ أَبعَدُ**

**فقال له عمر: هكذا صنعت، فأنت ترى كيف طبق المفصل، وأصاب شاكلة الروي، لما كان المعنى يقتضي زيادة البعد كلما طال العهد بأيام الموسم، واجتنب " أشط " لأنه لا يتزن ولا يستعمل، وعدا عن أن يقول " أبرح " وما شاكله رغبة في قرب المأخذ، وسلوكاً لطريق الفصاحة، وإتياناً بالمتعارف المعتاد المتعاهد.**))[8]

التعقيب على كلام ابن عباس وما فعله في بناء عجز البيت قبل أن يكشف عنه الشاعر فكان موافقاً له نصّاً ومعنى وقافية وروياً، فأصاب المفصل المشترك بين اللفظ والمعنى من صدر البيت وما يقتضيه من عجزه، فقدره تقديراً حسناً فوافق مؤلفه في اختيار اللفظ المناسب فجعل لفظ (دار

جيراننا) طريقاً ليرد العجز على الصدر فجاء بالدار معرفة بلام العهد ليستغني بها عن ذكر الجيران اقتضاء لحق الإيجاز في الكلام، وضيق الأوزان على المنطق، وقرن الدار بلام الابتداء ليدفع شكاً متوقعاً بالقرب دون البعد، فأكد البعد، وهو من معاني (تشط غداً) أي تبعد، وعَبَرَ لفظَ الغد إلى بعد غدٍ لتزداد المسافة بعداً فكان الموافق لقوله أبعدُ زيادة تحملها الصيغة وتوافق قافية القصيدة الدالية، ورويها في الدال المضموم مجراها طول القصيدة. ولو اختار(أشط) اسماً لبيان زيادة لأتى لفظاً بعيداً مما يختاره الشعراء لهذا المعنى، وأخل بالوزن(أَبعدُ) ثانيها ساكن، و(أَشَطُّ) ثانيها متحرك، وأمر ذلك ليس خفياً فيشرح. فقرب المأخذ شرط من شروط البلاغة يتناول جوانب متعددة منها اختيار اللفظ المناسب للمعنى الشعري، والوزن والروي والقافية، وصدر البيت وعجزه كما في المثال المذكور عند ابن رشيق القيرواني، وهو مثال يوضح اختلاف أفهام العلماء لمعنى قرب المأخذ.

فالبلاغة عند هذين الأعرابيين تَقَرُّبٌ من المعاني وتَباعدٌ من التكلف وإيجازٌ في القول غير مخل بالمعاني.

**البلاغة لمحة دالة:** معلوم أن الأعرابي يدرك اللغة لكنه لا يدرك مصطلحات العلماء التي تواضعوا عليها، فإن سئل الأعرابي عن مفهوم البلاغة أجاب بما يفهم من لفظ البلاغة لا بما يقوله علماء المصطلح البلاغي.

وإذا أجاب بالمفهوم لديه فإنه يتخطى الدلالة المعجمية إلى الدلالة العربية لهذا اللفظ عند أترابه من الأعراب، وهو أقربُ مفهومٍ إلى الدلالة الاصطلاحية لوقوعه وسطاً بين الدلالة المعجمية والدلالة الاصطلاحية، يدل على ذلك الخبر الآتي:((وقيل لأعرابي: ما البلاغة؟ فقال: لمحة دالّةٌ.))[9]

ولبيان معنى (لمحة) يمكن الإشارة إلى قول صاحب العين: ((لَمَحَ البَرْقُ، ولَمع ولَمَحَ البَصَرُ ولَمَحهُ ببَصَرِه واللَّمحةُ : النَّظْرة . وألْمَحهُ غيره))[10] فالمراد بقوله لمحة دالة سرعة إدراك المراد بالكلام كسرعة البرق، ولمعان المعنى من بين الألفاظ كلمعان البرق بين السحاب، وفي الإضاءة فسحة دلالة اللفظ على معناه، ويعود ذلك إلى إيجازه. ومبنى هذا المفهوم تشبيه البلاغة باللمحة الدالة التي تضيء

معنى الكلام بسرعة كسرعة البرق وتكشف عن مغزاه وجمال مبناه بإضاءةٍ كإضاءة البرق بين السحب.

وجاء به مجملاً[حذف وجه الشبه] ليكون غير منته إلى وجه محدد مما يعطي المخاطب والمتلقي فرصاً كثيرة لتقدير وجه شَبَهٍ غير متناهٍ إلى معنى محددٍ؛ مما يجعله قولاً وجيزاً في لفظه كثيراً في معانيه ومقاصده.

وجاء تفسير العبارة عند المتقدمين بقول أحدهم: ((**وقيل: البلاغة: لَمحة دالّة على ما في الضَّمير.**))[11] فالقائل متجه بإبصاره وبصيرته إلى معنى إفصاح البليغ بالبيان عما في صدره، وقد يفصح عما في عقله، وهو مفهوم لا يهدم معنى الإيجاز في التعبير القصير الذي يبدو كالإيماءة باليد أو الإشارة بالعين، وكل ذلك بسرعة البرق على ما تقدم.

ووقف ابن سنان الخفاجي على هذا التعريف للبلاغة بقوله: ((وقد **حَدَّ النَّاسُ البلاغة بحدودٍ** إذا حُقِّقَتْ كانت كالرسوم والعلائم، وليست بالحدود الصحيحة فمن ذلك قول بعضهم: **لمحة دالة** وهذا وصف من صفاتها. فأما أن يكون حاصراً لها، وحَدّاً يحيط بها فليس ذلك بممكن؛ لدخول الإشارة من غيرِ كلامٍ يُتَلَفَّظُ به تحتَ هذا الحَدِّ))[12]

فابن سنان يرى أن القائلين بهذا الحد للبلاغة إنما جعلوا لها علامة بصفاتها، وهذه الصفات ليست وسماً مميزاً للبلاغة دون غيرها، فأبطل التعريف؛ لأنه لا يحيط بالبلاغة التي تتصل بالقول الإبداعي البليغ، ووجدَ فساده بأن الإشارة من غير كلام تدخل تحت اللمحة الدالة.

والتحقيق يريك أن الأعرابي يشبه البلاغة باللمحة الدالة، ولا يجعل البلاغة عين اللمحة الدالة على ما في التعبير باللسان المبين من إشارة إلى ضمير الإنسان وما فيه من تجاربه ومواقفه وأحواله.

وذاك أمر لا يخفى على ابن سنان لكن حب المغالبة والمصاولة يدفع العالم إلى هدم أبنية المتقدمين رغبةً في تحريك العقول لاختراق فضاء القول المنقول، ورغبةً في إعادة الأبصار إلى مواضع البصيرة في النقول.

مما تقدم يتبين أن الأعرابي حصر معنى البلاغة في وجازة القول وسرعة نفوذه في مخاطَبه أو متلقيه وجماله في سبكه وترابطه.

**بلاغة التباعد**: إذا كانت البلاغة عند الأعرابي المتقدم ذكره تتجلى في تعبيرٍ يشبه اللمحة الدالة بالعين أو الإشارة باليد فإن أعرابياً آخركان يجد البلاغة بأمور أخرى حملها إلينا الخبر الآتي: ((وقيل لأعرابي: ما البلاغة؟ قال: التباعُد من حَشْو الكلام، والدَّلالة بالقليلِ على الكَثير.

ومدح أعرابيّ رجلاً، فقال: يُصم أذنيه عن استماع الخَنَا، ويُخْرِس لسانه عن التكلّم به، فهو الماء الشرَّيب، والمِصْقع الخَطيب.))[13]

فها هنا أعرابيان: أحدهما يقدم مفهوم البلاغة لديه بالنص عليه بقوله: (التباعُد من حَشْو الكلام، والدَّلالة بالقليلِ على الكَثير.) فهو يرى الكلام بليغاً إذا خلا من الحشو، واتصف بالإيجاز (والدلالة بالقليل على الكثير) أي بالدلالة بقليل اللفظ على كثير المعنى مما أسموه من بعد (الإيجاز) وفي النص على الإيجاز ما يخرج المساواة والإطناب رديفي الإيجاز على ألوان الكلام في علاقة اللفظ بالمعنى.

والمقصود بحشو الكلام قولُ أبي هلال العسكري: ((وقوله: والتباعد من حشو الكلام فالحشو على ثلاثة أضرب، اثنان منها مذمومان وواحد محمود.فأحد المذمومين هو إدخالك في الكلام لفظاً لو أسقطته لكان الكلام تاماً مثل قول الشاعر[14] [من البسيط]:

**أنعِي فتىً لم تذرَّ الشمسُ طالعةً ** يوماً من الدهر إلاّ ضَرَّ أَوْ نَفَعَا**

فقوله يوما من الدهر حشو لا يحتاج إليه لأن الشمس لا تطلع ليلا))[15]

وكلام العسكري صواب في مفهوم الحشو: (إدخالك في الكلام لفظاً لو أسقطته لكان الكلام تاماً) ولكنه لم يُنبِّه إلى أن ذاك تقديرٌ ذهني محض، ولم يصب في التطبيق؛ لأن الشاعرة الكِندية صاحبة البيت ذكرت اليوم(ليله ونهاره) ولم تحدد النهار أو الليل على طريقة العرب تذكر كلاً وتريد جزءاً، والإشارة إلى الدهر من موجبات فن الرثاء واقتضاء السياق، وآية ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي[16] [من الكامل]:

**أَمِنَ المنونِ وريبها تتوجعُ والدَّهر ليس بمعتبٍ من يجزعُ**

فمن شأن أبناء البوادي أن يربطوا المصائب بالدهر، ويريدون بالمصائب آثارها من الهمِّ والحزن، وأثر المصيبة يتجدد ليلاً ونهاراً، فكان قول المرأة (يوماً من الدهر) من موجبات غرض الرثاء، ومن مقتضىٰ الحال والمقال الشعري معاً، ولو سقط من الكلام لذهب شطر من بنيانه فاختل وزنه وذهب حسنه ورونقه، وليس كما قال أبو هلال، وقد جعل رياضة عقله سلطاناً علىٰ وعيه بالنص وسياقه.

والأعرابي الآخر يؤكد صفتي الإيجاز والخلو من الحشو بقوله في مدح رجل: (يُصم أذنيه عن استماع الخَنَا، ويُخرِس لسانه عن التكلّم به، فهو الماء الشَّرِيب، والمِصْقع الخَطيب) فقد وصف الرجل بحفظ أذنه(يصم أذنيه عن استماع الخنا) فلا يسمع كلاماً فاحشاً، وما أكثر الفحش في القول!! وصيانة لسانه عن قول الخنا. وأبدىٰ موقفه منه فجعله كالماء العذب لا يعكر سمعه الخنا، والسمع من ينابيع العقل واللسان، وكلامه بَردٌ علىٰ متلقيه لخلوه من قول الخنا. وفي قوله هذا ما يدل أن لدىٰ الأعرابي فهماً عميقاً لتكوين كلام الأديب الخطيب مثالاً، فما يسمعه سيترك أثره في قوله من حيث يعلم أو لا يعلم. فليحفظ سمعه ليصفو لسانُهُ وإبداعه مما يشينه.

ولعل هذا مراده بحشو الكلام بفاحشه كأماليح العلماء الموضوعة لاستراحة المتلقي.فالبلاغة بخلو الكلام من الحشو أو الفحش من جهة بنية المعنىٰ، وبالإيجاز من جهة اللفظ والمبنىٰ.

**البلاغة إيجاز وإطناب**: وفي الخبر الآتي: ((قال المفضل: قلت لأعرابي: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خَطل. وذكر أعرابي امرأة فقال: كلامها الوَبْلُ علىٰ المَحل، والعذب البارد علىٰ الظمأ.))[17] أعرابي متأخر كان يعاصر المفضَل الضبي يرىٰ البلاغة في إيجاز القول، وفي إطنابه، ويوغل أو يطنب في الكشف عن أنواع الإيجاز بقوله: (الإيجاز في غير عجز) مما يعني أن هناك إيجازاً من قوة، وآخر من ضعف. فالإيجاز البليغ إيجاز الاقتدار، وليس كل إيجازٍ بليغاً. ويرىٰ الإطناب ضرباً من البلاغة كقول المرأة (يوماً من الدهر) ففلسفة العجم ترىٰ تمام المعنىٰ باليوم

ولا حاجة لذكر الدهر، ولا حاجة للفظ اليوم؛ لأن الليل ليس فيه الشمس المذكورة في أول البيت، وانكسر هذا القول من قبل، وجاء هذا الأعرابي في القرن الثاني الهجري ليرى أن الإطناب -أي الإيغال في التعبير -مقام من مقامات البلاغة، وهو نوعان: أحدهما من غير خطل، والخطل (بمعنى السفه و بمعنى ترك الإصابة)معناه السفه كالخنا فيما تقدم، فإن خلا من ذلك فهو الإطناب المحمود والقول البليغ، وإلا فهو مذموم، وهو نوع آخر تخرجه العرب من البلاغة.

وأتى الأعرابي الآخر بقوله في محبوبته: (كلامها الوبل على المحل، والعذب البارد على الظمأ.) فالكلام كلامها وهو في طريقه إليه كالوبل في طريقه إلى الأرض، وكلامها عذب بارد كالماء عند شربه. فالكلام البليغ: (كلامها الوبل والعذب البارد) والإطناب فيما تبقى زاد الكلام بلاغة لبيان حاله في انتظار كلامها واستشعار قوة أثره فيه، فجعل وابل المطر منها متجهاً إلى الأرض المحلة المشتاقة لقدوم الوبل، فلما وصله ووصل إليه وجده عذب الطعم بارداً في فضاء حار، فأحدث ذلك الكلام فيه ما يحدث الوبل في الأرض بقدومه تستقبله الأرض بفقاعات الماء وتبخر قسم منه لدي التلقي فهي تهتز لاستقباله، فإذا تغلغل الماء في التربة شعرت بعذوبته وبرودته فاطمأنت، وهذه حاله في استقبال كلامها، والإطناب زاد الكلام بلاغة وقوة في التأثير، ولو حذف الإطناب لتأخرت بلاغة الكلام ونقص حسنه في النفس.

**أبلغ الناس عند الأعراب:** صيغة أفعل(أبلغ) من الفعل الثلاثي(بلغ) يفهم منه أن البلاغة قابلة للتفاوت بين البلغاء أنفسهم، فهنا بليغ وهناك أبلغ، وهو المستفاد من الخبر الآتي: ((**سئل أعرابي: من أبلغ الناس؟ قال: أحسنهم لفظاً، وأمثلهم بديهة**))[18]

((**وسئل بعض الأعراب: من أبلغ الناس؟ فقال: أسهلهم لفظاً، وأحسنهم بديهةً**..))[19]

فكلا الأعرابيين لم يذكر بليغاً محدداً بلغ رتبة أبلغ الناس، لكنهما وضعا لذلك مقياساً، ربطه بحسن اللفظ وامتثال البديهة لحاجة البليغ للكلام المعبر عما يريد، وحسن اللفظ يكشف عن أمور متعددة أولها اختيار اللفظ المناسب للمعنى والغرض معاً، واختياره لموقعه من الجملة أو الأسلوب

تقديماً وتأخيراً يوافق مقتضى الحال، والبعد من التكلف والمشقة في طلب ذلك اللفظ لتلك المعاني، وإبعاد ما لا يليق من غير وعي بالعملية الجارية بالاختيار حذفاً واصطفاءً.

فأبلغ الناس أحسنهم اختياراً للفظ ونظماً له في سياقٍ قوليٍّ، وأقدرهم على إحضار البديهة للقول عندما يريد، بل يريد أن بديهته حاضرة دوماً، فهو عالٍ في طاقته الإبداعية لا ينتظر شدة ولا طرباً بل يقول عندما يعرض له مناسبة توجب القول.

وجعل الأعرابي الآخر أبلغ الناس(**أسهلهم لفظاً، وأحسنهم بديهةً**) فجعل قرب مأخذ اللفظ مما يكون سهلاً للناس، فكأنه يفسر حسن اللفظ بسهولته، وهي حال خاصة من أحوال متعددة لحسن اللفظ المستمد من سهولة اللفظ ومناسبته للمعنى، ولموقعه من الكلام، وحال قائله أو مخاطبه، وجعل للبديهة حسناً لانقيادها له كلما دعاها الموقف أو الحال للحضور إليه.فهما يريان أبلغ الناس مَنْ حسن لفظه بسهولته وانقادت له بديهته عند حاجته إليها، وبهاتين الصفتين يبلغ البلغاء رتبة أبلغ الناس.

مما تقدم يتبين أن الأعراب يجدون البلاغة في إيجاز المقتدرين على الإيجاز لا في إيجاز العاجزين، ويرون التعبير البلاغي كاللمحة الدالة أو الإيماءة أو الإشارة، ويجعلون البلاغة في اجتناب قول الخنا أو الحشو من الكلام، ويجعلون الإطناب ضرباً من البلاغة، ويرون أبلغَ الناس مَنْ حَسُنَ لفظُهُ وانقادتْ له بديهته فلم تخنه عند حاجته إليها. وواضح أن الأعراب يتفقون على إثبات صفة الإيجاز للبلاغة وترك الحشو ولا ينفون الإطناب عنها ما لم يكن زائداً عن موجبات المقام ومقتضى الحال.. ويرون الاختيار وطريقة بناء الكلام جزءاً لا يتجزأ من البلاغة.

هذا ما يراه الأعرابي المجهول فماذا يقول الأعرابي المعلوم؟ وعسانا نلتقي مرة أخرى في مضارب الأعراب لنأخذ من رؤاهم في البلاغة لِيُعلم مقدار ما أخذ العلماء من أقوالهم، ومدى اتساع أفهامهم، ولم يكونوا علماء بل كانوا يقدمون المفهوم من فضاء اللغة وتواضع القبيلة عليه.

**هوامش البحث وإحالاته:**

1 – العقد الفريد، لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، بيروت– دار الكتاب اللبناني، 1403هـ–1983م: 2/ 261

2 – زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني(-453هـ) ضبطه: د.صلاح الدين الهواري، بيروت وصيدا-المكتبة العصرية، ط1، 1421هـ-2001م: 1/ 153

3 -كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تصنيف أبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة-عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1971م: 53

4 – انظر: كتاب الأضداد في كلام العرب، لأبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي(-351هـ) تحقيق: د.عزة حسن، دمشق-مطبوعات مجمع اللغة العربية، 1382هـ-1963م: 1/ 145

5 – نهاية الأرب في فنون الأدب، تأليف أحمد بن عبد الوهاب النويري، القاهرة-مطبعة دار الكتب المصرية، 1347هـ-1929م: 7/ 6

6 – كتاب الصناعتين: 53

7 – ديوان عمر بن أبي ربيعة، تقديم وترتيب وشرح قدري مايو، بيروت-عالم الكتب، ط1، 1417هـ-1997م: 1/ 168

8 – العمدة في محاسن الشعر وآدابه، للإمام أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني: 1/ 618

9 – بهجة المجالس وأنس المُجالس وشحذ الذهن والهاجس، للإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد الله النمري القرطبي(368-463هـ) تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت-دار الكتب العلمية، ط2، 1981م: 1/ 71

10 – العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د.مهدي المخزومي، ود.إبراهيم السامرائي، إيران-قم، ط1، 1405هـ: 3/ 243

11 – العقد الفريد: 2/ 263

12 – سر الفصاحة، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي(-466هـ) تحقيق: د.النبوي عبد الواحد شعلان، القاهرة-دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2003م: 67

13 – العقد الفريد: 1/ 448

14 – شرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي(-421هـ) نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، بيروت-دار الجيل، ط1، 1411هـ-1991م: 2/ 975

15 – كتاب الصناعتين: 54

16 – شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة-مكتبة دار العروبة، [د.ت]: 1/ 4

17 - التذكرة الحمدونية، تصنيف ابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن علي، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، بيروت-دار صادر، ط1، 1996م: 5/ 401

18 - البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: د.وداد القاضي، بيروت-دار صادر، ط1، 1408هـ-1988م: 5/ 27

19 - العمدة: 1/ 418.